رؤية مستقبلية لكتابة التاريخ الإسلامي
في ضوء العولمة

أد. ابراهيم القادري بوتشيش*

الملخص:

لا تزال العولمة تفرز الكثير من الآثار على جميع الأصعدة والمستويات بما فيها المستوى الثقافي والمعرفي. ولم يكن مجال التاريخ وتدريسه بمنأى عن رياح التأثير التي طالت مختلف العلوم بفعل ما أحدثته العولمة من ثورة في المعلومات والاتصالات. وبما أن "المعلومات " هي مادة المؤرخ ومرتكزه، فإن وقع العولمة يصبح قويا على مادة التاريخ وطرق تدريسه إيجابيا وسلبا. وانطلاقا من هذه الإزدواجية في التأثير يسعى هذا البحث إلى إبراز الجوانب التي يمكن أن يستفيد منها التاريخ بما أفرزته العولمة من ثورة معلوماتية مثل جهاز الحاسوب وإمكانية استغلاله في البحث والتدريس معا، وكذلك توظيف شبكة الأنترنت في الحقلين من حيث معرفة مصادر المعلومات وتنظيم البيبلوغرافيا وربط الصلة بين الباحثين والمتخصصين وتقريب المسافات بينهم، وتأسيس بنك للمعلومات، وفهارس متنوعة عن طريق بعض برامج الحاسوب.

بيد أن هذه الإيجابيات تخفي وراءها بعض السلبيات التي تستلزم الاحتياط والممانعة، وتتمثل في عدم الانبطاح كليا أمام "قيم" العولمة ومنظورها، لأن بعض القيم المعرفية التي انبثقت عن العولمة الثقافية تنتهي إلى تذويب التاريخ العربي عموما والمغربي خصوصا في قالب "عالمي" مفروض وسلب خصوصياته، وتوجيه المقررات والمناهج التاريخية في الجامعة المغربية نحو ما يخدم أغراض المؤسسات والشركات الاقتصادية

* – **أستاذ في تاريخ الغرب الإسلامي، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، المملكة المغربية.**

العملاقة، مما يؤدي إلى تحجيم هذا التاريخ وتشويهه انطلاقا من سلطة الأرباح ومن الصورة المرئية التي يتبناها نظام العولمة معرفيا على حساب ما يختزنه التاريخ المغربي من تراث مكتوب لا تستطيع الصورة أن تعكسه ، فضلا عن جوانب أخرى سلبية تقترح هذه الورقة كيفية التعامل معها لا بالرفض، لكن بالتفاعل الايجابي الذي لا يفرط في خصوصية هوية التاريخ المغربي.

Abstract

Globalization continues to secrete much impact at all levels, including cultural and knowledge. The field of history and teaching was not far from the impact, affecting different areas of science that was caused by the globalization of the revolution in information and communication. As "information" is the substance of the impact of globalization becomes a strong history and positive and negative teaching methods. On the basis of this duality is in fact this research is to highlight the aspects that can benefit from history, including globalization excreted from the information revolution, like a computer and the ability to operate in research and teaching together, and the use of the Internet in the fields in terms of knowledge of information sources and organize bibliography and connecting link between researchers, specialists and rounded the distances between them, and the creation a data bank, and a variety of indices by some computer programs.

مقدمة :

يعرف العالم اليوم تحولات وانعطافات عميقة انبثقت عن القوى والتشكيلات الجديدة في النظام الرأسمالي العالمي. ولعلّ أبرز ظاهرة أصبحت تتصدر هذه المتغيرات تكمن في ظاهرة العولمة. ومن الصعب على المرء أن يتغافل الآثار المترتبة على هذه الظاهرة إن على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي، أو على هوية الأمم وصيرورتها التاريخية.

لقد أصبح من شبه المؤكد أن المجتمع الدولي في الألفية الثالثة سيخترق كل الحدود ليتحول من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات، ومن مجتمع الصناعة الثقيلة إلى مجتمع الصناعة العالية الذكية، ومن عالم الحداثة إلى عالم ما بعد الحداثة، ومن التنظيم التراتبي الهيرارشي إلى أشكال تنظيم يعتمد على بناء الاتصالات وامتداداتها net working [1]، ومثل هذه التحولات الحاسمة لا يمكن إلا أن تنحت بصمات واضحة وأحيانا جذرية على هوية المجتمعات والثقافات المختلفة.

بديهي والأمر كذلك أن تتأثر الثقافة الإسلامية برياح التغيير التي أخذت تطال كل ثقافات العالم وتبني الأسس لتشكيل مجتمع دولي جديد في أفق الألفية الثالثة.

ومن تحصيل الحاصل أن يكون التاريخ الإسلامي باعتباره جزءا من بنية الثقافة الإسلامية عرضة لهذه التحولات التي تعصف بالمنظومة العالمية، فنظام العولمة الذي استأسد وانتفخت أوصاله أصبح قدرا لا مفر منه في عالم مادي تتحكم فيه سلطة المال والجشع والنفعية، لذلك تحاول هذه الورقة تقديم تصور لما يمكن أن تخلفه العولمة –كنظام ثقافي– من آثار على مستقبل التاريخ الإسلامي، كما تحاول في ذات الوقت تقديم مقترحات للتصدي لأخطارها السلبية.

أولا : العولمة والعالمية وحدود تعامل التاريخ الإسلامي معهما.

ثمة اتجاه لا يميز بين العولمة كإيديولوجية خطيرة ، والعالمية كعطاء حضاري إنساني[2]، لذلك وجب التمييز بينهما لإدراك الموقع الذي تتعامل معه الكتابة التاريخية الإسلامية في أفق المستقبل.

1- في مفهوم العولمة: تعني العولمة من الناحية اللغوية تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل أرجاء العالم برمته. كما تعني في المجال السياسي منظورا إليه من زاوية جيوبوليتيكية تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه، وهو الولايات المتحدة الأمريكية

بالذات. أما من الناحية الإيديولوجية فالعولمة هي تعبير مباشر عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته[3].

وترجع بداية ظهور هذا المصطلح إلى نهاية عقد الثمانينات بعد انهيار حائط برلين وانهيار قلاع الشيوعية، وإعلان الولايات المتحدة الأمريكية ما يسمى بالنظام العالمي الجديد. وفي إطار تكريس القطب الأمريكي الأوحد وتحكمه في مصائر العالم، أعلن في مرحلة تالية ما يسمى بالعولمة أو الكوننة أو الكوكبة وكلها مترادفات تشير إلى نفس المعنى[4].

على أن العولمة وإن لم تظهر قبل عقد من الزمن كمصطلح في الأدبيات السياسية والاقتصادية والثقافية، فإنها ظاهرة قديمة يمكن إرجاع جذورها حسبما يقرره " روبرستون" إلى فترة ظهور الدولة القومية[5]، كما تعود إلى المرحلة الاستعمارية وتكون الرأسمالية ، لذلك يمكن الجزم مع بعض الباحثين أنها تجسد اليوم التعبير الصحيح لانتصار النظام الرأسمالي العالمي كونيا ، وتمثل الدرجة العليا في علاقات الهيمنة والإمبريالية[6].

بيد أن سر بروزها بصورة جلية في العقد الأخير يكمن في الثورة العلمية والتقانية وما حصل من تطورات ضخمة في عالم الاتصال، خاصة مع تطور الحواسيب الإلكترونية والأقمار الصناعية وظهور شبكة الإنترنت.

ومع سيادة ثورة المعلومات والتفوق التقاني، أصبحت العولمة تنحو نحو صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها الخاصة، بغية ضبط سلوك الدول والشعوب وفرض وصاية عليها من خلال تفوقها العلمي والآلي. والحاصل أن هذا القالب " المفروض " من الثقافة العالمية يشكل عدوانا على الثقافات المحلية وثقافات الشعوب الثالثية، ولم لا يكون التاريخ الإسلامي أبرز ضحايا ثقافة الهيمنة والوصاية؟ وهو الأمر الذي سنجيش له مجوعة من القرائن للدلالة على صحته.

2- في مفهوم العالمية: أما العالمية فهي منظومة إنسانية حضارية تقوم على أساس الحوار مع الآخر، وتتسامح مع ثقافته، و تتفاعل معه انطلاقا من مبدأ الأخذ والعطاء. كما تعني "الإصغاء المتبادل من سائر الثقافات بعضها إلى بعضها الآخر، والاعتراف المتبادل بينهما، ومنه الاعتراف بحق الاختلاف ..والحوار والتفاهم"[7]. وقد كان الإسلام سباقا للدعوة للعالمية ، وحسبنا أن القرآن الكريم يحفل بالآيات الدالة على هذا المعنى حيث قال تعالى "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[8] وقوله تعالى "وما أرسلناك إلا كافة للناس "[9] وغيرها من الآيات[10] التي نلاحظ أنها تركز كلها على الكونية كما تدل على ذلك التعبيرات القرآنية مثل "العالمين" و"للناس كافة" و"للناس جميعا ". ولعل أبلغ آية تشير إلى معنى العالمية تتجلى في قوله تعالى "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"[11] . فالعالمية من هذا المنظور سلوك حضاري يدعو إلى حوار الثقافات مع الاحتفاظ بالخصوصيات الثقافية، وينحو نحو الأخذ والعطاء من أجل التلاقح والنضج والاكتمال. إنها بتعبير آخر طريقة "الأنا" للتعامل مع "الآخر" واحترام ثقافته وتقاليده، وهو النهج الذي سارت على هديه الحضارة العربية–الإسلامية عندما مدت جسور التواصل والتلاقح مع الحضارات المتزامنة معها كالحضارة الفارسية والهندية واليونانية وغيرها من الحضارات الإنسانية، فكانت عالمية بمعنى الكلمة، تفتح بابها لكل طارق ولا تغلقه دون قاصد .

ومن خلال عناصر المقارنة يتضح أن ثمة فرق واضح بين العالمية التي دعا إليها الإسلام والمبنية على مبدأ الأخوة، والعولمة التي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية طبخ نظرياتها وفرضها على الشعوب بما في ذلك حتى شعوب بعض البلدان المصنعة*. وقد كان من اللازم منهجيا أن نبدأ بهذه التعاريف حتى يمكن تلمس الموقع الذي يتموضع فيه التاريخ الإسلامي مستقبلا ، ويحدد موقفا سليما تجاه العالمية كظاهرة صحية تتلاءم ومبادئه، والعولمة كظاهرة ثقافية مفروضة.

ثانيا: هل تتلاءم أسس وقيم العولمة مع قيم التاريخ الإسلامي ؟

دون مصادرة على إيجابيات العولمة التي سنعرض لها عند ذكر إمكانية استفادة التاريخ الإسلامي منها، نحاول أن نطرح الأسس والقيم التي يتأسس عليها كيان العولمة ومنظوراتها للنظام الثقافي لنناقش بعد ذلك مدى تطابقها مع قيم التاريخ الإسلامي ومرتكزاته.

1-الأسس: يمكن اختزالها في جملة العوارض الآتية :

– إن مصادر المعرفة في نظام العولمة – شأنها شأن مصادر الاقتصاد – تظل بيد الشركات التجارية المتعددة الجنسيات[12]. وبما أن الثقافة وضمنها التاريخ يعد جزءا لا يتجزأ من بنية المعرفة، فمعنى ذلك أن تواريخ الأمم ستقحم في مجال العمليات الاقتصادية أسوة بغيرها من المنتوجات، وهذا سيكون له أسوأ الأثر على التاريخ الإسلامي كما سنرى.

– إن العولمة– في مجال التاريخ– تعني الانتقال من تاريخ البنى القبلية والدولة والأمة إلى تاريخ المجموعة الإنسانية[13]. والمجموعة الإنسانية المقصودة هنا هي تلك القرية الكونية الموحدة التي صاغها النظام الجديد بزعامة أمريكا، قرية لا محلّ فيها إلا للقوي وأصحاب سلطة المال والشركات العملاقة، فهل يتوافق هذا المعنى مع روح التاريخ الإسلامي ؟ ذلك ما سنناقشه في موضعه.

– والعولمة هي أيضا تعبير عن إرادة الهيمنة الثقافية الأمريكية التي تتحكم في القرية العالمية المذكورة. ومن المسلم به أن فرض نموذج ثقافي بعينه يعني إقصاء نموذج ثقافة الآخر، مما يترتب عليه نتائج خطيرة على التاريخ الإسلامي.

– تقوم العولمة كذلك على أساس إلغاء الصراع الإيديولوجي الذي كان محتدما إلى حدود التسعينات

– تسعى العولمة أيضا إلى تسطيح الوعي وإحلال " الإدراك" محله. و"الإدراك" المقصود في هذا المجال هو مجموعة من الصور والمشاهد ذات الطابع الإعلامي الإشهاري الذي يحجب العقل ويقلّل من أهمية الوعي الطبقي، فيتم بموجبه إخضاع النفوس والتشويش على نظام القيم وقولبة السلوك، والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك المعرفي يشكل ما يطلق عليه المفكر محمد عابد الجابري ثقافة الاختراق[14].

– لا تعترف العولمة بالحدود الثقافية، فهي ترسم " حدودا " أخرى غير مرئية تحددها الشبكات العالمية قصد الهيمنة على الأخلاق والنفس والسلوك[15]، وهذه أيضا من القضايا التي تؤثر على التاريخ الإسلامي كما سنفصل .

2- في قيم العولمة ومنظوراتها : وإذا ما تعمقنا في كنه العولمة وقيمها ، وجدناها تتناقض تماما مع قيم التاريخ الإسلامي ومنها[16] :

* منظور الفردية: تحاول العولمة أن توهم الإنسان بأن حقيقة وجوده محصورة في فرديته وانعزاليته ، وأن كل ما عداه أجنبي لا يعنيه، وبذلك فهي تكرس روح الأنانية وإقصاء أي بعد جماعي أو تعاوني في المنظومة الكونية.

*منظور الحياد: فباسم الحرية تدعو العولمة الثقافية إلى الحياد ، حياد الإنسان تجاه مجتمعه، وحياد هذا الأخير تجاه غيره، مما يعني تكريس مبدأ التحلّل من كل التزام أو ارتباط أو مسؤولية في النقد والتوجيه .

*ويسعى نظام العولمة إلى تكريس اعتقاد خاطئ يقوم على فكرة عدم تغيّر البنى الاجتماعية، ومن ثم يعمل على صرف النظر عن رؤية الفوارق بين الأغنياء والفقراء، بين البيض والسود، بين المستغلين والمستغلين، ويعتبر كل ذلك فوارق طبيعية عادية كالفارق بين الليل والنهار أو الفصول، والهدف من ذلك شل روح المقاومة في الفرد والجماعة لتحسين وضعه وممارسة حق الارتقاء الاجتماعي.

*كما يقوم منظور العولمة على نفي الدولة وتأسيس عالم بدون دولة أو وطن أو أمة، فالعالم الذي تجري وراءه هو عالم المؤسسات والشبكات العالمية[17]. أما الوطن أو الأمة فهو الفضاء المعلوماتي والمواقع التي تضعها شبكات الاتصال. وفي هذا المنحى ذكر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في خطاب له "أن عصر تدخل الدولة قد مضى وانقضى"[18].

*تعمل العولمة كذلك على تعميق الخلاف بين الثقافة التقليدية والثقافة العصرية في البلدان التي تتشبث بتراثها مثل المجتمعات الإسلامية .

*الثقافة في العولمة هي ثقافة الصورة، لا الثقافة المكتوبة[19]، وهذا له تأثيره أيضا على وضعية الكتابة التاريخية الإسلامية كما سنبيّن .

*من المسلم به أن العولمة تقوم على التقدم التكنولوجي، وينطوي هذا التقدم على رغبة المجتمع المصنع في زيادة قدرته وتفوقه على المجتمع غير المصنع لتحقيق تفرده وهيمنته.

*ويقوم نظام الإعلام فيها على قوة وسرعة البث، سواء في مجال الفضائيات أو على صعيد شبكة الأنترنت الدولية[20]، وهذه إحدى المظاهر التي تؤثر كثيرا على كتابة التاريخ الإسلامي أو دراسته واستيعابه بالنسبة للطالب المتلقي كما سنوضح في الشق الموالي من البحث.

ثالثا : أثر العولمة على التاريخ الإسلامي .

لا سبيل لإنكار بعض القضايا الايجابية التي أفرزها نظام العولمة على المستوى الثقافي، من بينها سرعة الاتصال واختراق الحدود وتقليص المسافات، وهو ما اسماه "هارفي " بظاهرة الاختزال السريع لبعدي الزمان والمكان[21]؛ ولا غرو فقد صار بإمكان الباحث أن يصل إلى أبعد مكتبة في العالم عن طريق شبكة الانترنت، وأن يبحث في المواقع التي توفرها هذه الشبكة عن أبرز المواضيع التي يعالجها، أو يتصل بالخبراء الذين

يحتاج إلى خبرتهم. كما أن ثورة الحاسوب سهلت عليه كثيرا مما كان يعتبر من قبل مضنيا وشاقا سواء من ناحية البيبلوغرافيا وتنظيمها، أو تشكيل الجداول والإحصاءات والفيشات وغيرها، أو الحصول على المعلومات من مصادر كانت تعتبر من قبل مستحيلة.

لكن رغم هذه الايجابيات، فما هو مستقبل التاريخ الإسلامي والهوية التاريخية الإسلامية انطلاقا من المبادئ التي تقوم عليها العولمة والتي عرضناها في الشق السابق ؟

إن الهوية التاريخية التي نعنيها في هذا المجال هي الخصوصية التاريخية التي أفرزها الواقع البيئي والديني والثقافي للمجتمع الإسلامي، ولكي نجيب على تساؤلاتنا سننطلق من الأسس التي تقوم عليها العولمة كما سطرناها من قبل.

لقد أسلفنا القول أن مصادر المعرفة في نظام العولمة تخضع لتحكم الشركات التجارية، وهذا يعني أن التاريخ الإسلامي كجزء من نظام المعرفة يصبح بدوره مجرد سلعة ينطبق عليها من الأحكام والإجراءات ما ينطبق على سواها من السلع المادية فيخضع إنتاج التاريخ الإسلامي بكتبه وندواته وأفلامه لقانون العرض والطلب، ويبقى حكرا على القوى الأجنبية التي تمتلك المال والقدرة التقنية، وبالتالي لن يصبح بين أيدي أمينة تحافظ على حقيقته وموضوعيته، بل سيصبح لا محالة معرضا للتشويه والتحريف والبعد عن الحقيقة كما يقع للسلع التي تقوم الشركات بالإعلان عنها، فتروج لها بالحق والباطل دون استهداف الحقيقة ما دام الربح يبرر الوسيلة، لذلك سيتعرض التاريخ الإسلامي مع سيادة العولمة لتشويه وافتراءات لا تقل عن الافتراءات التي لصقت به منذ القرن 19 مع الدراسات الاستشراقية، وسيستقبله الغرب بهذه الصورة المزيفة لأن تأثير الإعلام وقوة وسرعة نفاذه لا يخفى على أحد.

أما بخصوص سعي العولمة إلى صياغة تاريخ المجموعة الإنسانية "كقرية كونية متجانسة" ضاربة عرض الحائط بتاريخ البنى القبلية والدولة والأمة، فهذه من أخطر ما

يحيط بالتاريخ الإسلامي من مطبات، ذلك أن تاريخ العرب والإسلام هو تاريخ قبائل وتاريخ دولة وأمة. لقد انتقلت الجزيرة العربية ببنياتها القبلية قبل ظهور الإسلام إلى تاريخ الدولة الموحدة L´etat unificateur لتنصهر كافة القبائل تحت لوائها في إطار الأمة العربية . الإسلامية ؛ ومن غير المنطقي أن ينسحق هذا الهيكل العام للتاريخ الإسلامي إلى ماهو نقيضه. من ناحية أخرى فان مفهوم القرية الكونية المتجانسة مفهوم مخادع ومزيف لحقيقة الكون، ذلك أن الاختلاف ناموس من نواميس الله في خلقه، يجري على قدر وينتهي إلى غاية.ومن مقتضى هذه النواميس أن تتعدد المجتمعات البشرية وتتنوع في صفاتها وسماتها[22]. والقرآن الكريم الذي يعد المصدر الأول لاستلهام التاريخ الإسلامي يبين هذه الحقيقة حيث قال تعالى :"لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه"[23] و"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة"[24]. لذلك نعتقد أننا لا نبتعد عن الصواب إذا افترضنا أن تاريخ المجموعة الإنسانية وهم يسعى إلى إقصاء الخصوصيات التاريخية لكل مجتمع، أو أنه محاولة لأمركة التاريخ العالمي وجعل التاريخ الإسلامي يخضع لرؤاه وتوجهاته، وبعبارة أخرى فإن تاريخ المجموعة الإنسانية هو تاريخ استعماري يحاول أن يخترق التاريخ الإسلامي ويسلبه خصوصيته ويخضعه لقوانينه تمهيدا لاحتوائه ثم التهامه.

ومما يدعم هذا التخريج أن العولمة كما أجمع على ذلك الباحثون هي وجه آخر لإرادة الهيمنة الثقافية الأمريكية التي لا تتحاور مع الثقافات الأخرى على قدم المساواة، بل تحاول–مستفيدة من تفوقها التقني– فرض ثقافتها على الآخر، مما يعكس الموقع الحرج الذي سيصبح فيه التاريخ الإسلامي، إذ سيغدو آنذاك خاضعا للثقافة المسيطرة فتخترقه وتطلق فيه يدها. والأنكى من ذلك أن هذا الاختراق سيمتد ليشمل الجامعات والمؤسسات الأكاديمية، مما يتمخض عنه دون شك إملاء الوصايات على تدريس التاريخ الإسلامي ومقرراته ومناهجه وبالتالي فإن "السيادة" في تدريس التاريخ

ستتعرض بدورها لاختراق كبير، فتتدخل القوى المهيمنة وعملاؤها لفرض مقررات بعينها كالصناعة السياحة وإدارة الفنادق عوض تاريخ المعمار الإسلامي والآثار والفنون الإسلامية، وذلك تحت حجة ربط الجامعة بمحيط العمل وإيجاد الشغل. ويصبح الطالب نفسه هدفا لهذا الاختراق لسبب بسيط وهي أن العولمة كما سبقت الإشارة لا تعترف بالحدود الثقافية إذ لها حدود أخرى غير مرئية ترسمها الشبكات العملاقة القادرة على دك أسوار الجامعات والمرور عبرها للتأثير على عقلية الطالب وسلوكه والتشويش على معرفته التاريخية ونظرته لتاريخ الإسلام.

والقول بأن العولمة تسعى إلى تسطيح الوعي وإحلال "الإدراك" محله، يكشف الوجه الآخر لخطورتها على التاريخ الإسلامي، ومنطلقاتها المحبوكة، ذلك أن الوعي هو جزء من بنية العقل. ولا يمكن دراسة التاريخ الإسلامي بدون حضور وعي الدارس أو الباحث، ودون حضوره في البحث نفسه كعامل مؤثر في موضوع الدراسة. فالوعي بكل أبعاده الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية ضروري في كل تحليل. والقرآن الكريم يحفل بالآيات التي تدعو إلى تبني العقل والوعي بأمور الأشياء[25]. كما أن تراثنا في التاريخ الإسلامي يزخر بهذا النوع من الوعي التاريخي، وينهض نموذج ابن خلدون دليلا قاطعا على ذلك[26]. أما "الإدراك" الذي تدعو إليه العولمة فهو نوع من فرض الأمر الواقع، يعبّر عنه المروجون له بعبارة "هكذا يجب أن تدرك ولا تجادل". ومثل هذه المقولة تتنافى مع منهج البحث التاريخي الذي ينقب عن الحقيقة انطلاقا من إثارة التساؤلات القلقة ومحاولة استشفاف الثاوي الدفين، وطرح الفرضيات المحفزة على البحث للوصول من خلال الوعي بأمور الأشياء خاصة، وبطبيعة الصراع الاجتماعي إلى الحقيقة التاريخية.

وبالمثل فإن إلغاء الصراع الإيديولوجي كما يدعو إلى ذلك منظرو العولمة معناه إلغاء تفسير وتأويل الماضي، علما بأن التفسير يشكل في حد ذاته بنية التاريخ. فإلغاء

الايديولوجيا – وهو أمر غير ممكن في العلوم الإنسانية – يجعل التاريخ الإسلامي مبتورا وناقصا.

وإذا تأملنا المنظورات التي تشكل "فلسفة" العولمة، لا نجد عناء في إيجاد تناقض أطروحاتها مع فلسفة التاريخ الإسلامي.

فالعولمة كما أسلفنا الذكر تقوم على أساس الفردية والأنانية ، وهذا في حد ذاته يعبّر عن تناقضها الداخلي لأنها في الوقت الذي تدعو فيه إلى نظرية "المجتمع الدولي" فإنها تعبّر عن هذه النزعة الضيقة للفرد. وعلى كل حال، فإن ذلك يناقض أيضا واقع التاريخ الإسلامي الذي يقوم على مبدأ الجماعة والشورى والحلّ والعقد والبيعة العامة ومبدأ الرجوع إلى جمهور المسلمين، وكلها صيغ تعكس الضمير الجمعي، بل إن التاريخ الإسلامي يزخر بالأمثلة التي سببت فيها الفردية والانفراد بالسلطة والقرار فتنة وثورات كما هو الحال في عهد الخليفة عثمان بن عفان والخلفاء الأمويون، لا بل إن التاريخ الإسلامي خاصة في بنيته المجتمعية هو تاريخ علاقات تضامن ومؤازرة يعيش الفرد داخل أمته التي تتكفل بحمايته، ويعتبر كل إنجازاته انجازات لأمته، وهذا ما لا يتفق البتة مع مبدأ الفردانية التي تعمل على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية والقومية، وتسعى إلى فصل الفرد عن أمته. وبقراءة مختلف حقب التاريخ الإسلامي، يتبين أنه ظل يسير دوما على إيقاع الأمة لا على وتيرة الفرد. ومن العسير أن نجد مؤرخا واحدا من مؤرخي المسلمين منذ ظهور التدوين التاريخي يكتب بعيدا عن هموم أمته، إذ ظلت منظومة الأمة هي السمة التي وسمت بميسمها ذهنية المؤرخ في جل العصور الإسلامية[27]. بل إن حتى زعماء حركات الاحتجاج والعصيان في التاريخ الإسلامي لم يرفعوا شعار الخروج عن الأمة. فكيف تقلب هذه الحقيقة فيفسر تاريخنا بوهم الفردانية، علما بأن التاريخ نفسه من صنع المجتمع، لا من صنع الفرد كما أجمعت على ذلك معظم الاتجاهات التاريخية العلمية .

أما بخصوص نقطة الحياد التي تقوم عليها ثقافة العولمة ، فتمثل منحى خطيرا في دراسة تاريخ الإسلام. فتطبيق الحياد بالمفهوم العولمي يجعل المؤرخ المسلم يكتب وهو في حلّ من كل التزام بقضايا أمته وعقيدته الدينية. وعندما يلاحظ أخطاء ترتكب في التحليل أو تهم مجانية تلصق ببعض الشخصيات الإسلامية، لا يمكن أن يعارض انطلاقا من مبدأ الحياد. وعندما يقرأ أحكاما ملغومة تسطرها أقلام بعض المستشرقين عن تاريخ السيرة النبوية أو الصحابة أو الخلفاء الراشدين أو أو...، عليه أن "يسكت" دون أدنى تعليق أو مساءلة أو فحص باسم الحياد ...! إنها محاولة لتركيع الحس التاريخي لا يمكن أن يقبلها كل عاقل ودارس أمين للتاريخ الإسلامي.

إذا انتقلنا إلى المغالطة التي تطرحها العولمة حول الطبيعة البشرية التي لا تتغير حسب وجهة نظرها، واعتبار الفوارق البشرية مسألة عادية ، نلاحظ أن هذا التوجه يتناقض كذلك مع روح التاريخ الإسلامي. فمعظم التحولات والانعطافات التي شهدها العالم الإسلامي في تاريخه إنما كانت نتيجة الصراعات المتأججة بسبب الفوارق الطبقية والاجتماعية وكثرة الاستغلال وما يتمخض عنه من صراع اجتماعي. وفي القرآن الكريم تنبث العديد من الآيات التي تجسد هذه الروح، وتؤكد حتمية الصراع الاجتماعي[28]، وثمة العديد من النماذج في التاريخ الإسلامي التي تؤكد هذه الحقيقة ودورها في المتغيرات التي يشهدها التاريخ مثل حركة أبي ذر الغفاري وحركات الخوارج والموالي في العصر الأموي وحركة الزنج في العصر العباسي. ولم يغفل القرآن الكريم حتمية انتصار المستغل على المستغل وما يتركه ذلك من أثر في صيرورة التاريخ[29].

ثم نصل إلى نقطة جوهرية تقوم عليها " فلسفة " العولمة، وهي تأسيس عالم دون دولة أو وطن أو أمة. ويخيل إلينا أن هذه المسألة تناقض بالتمام والكمال مقولات التاريخ الإسلامي، ففي جلّ حقب هذا التاريخ، نجد مؤسسة الدولة والخلافة تلعب دورا أساسيا. وقد تطرق مصنفو كتب الأحكام السلطانية كالماوردي وابن خلدون

والفارابي والطرطوشي وابن الأزرق وابن رضوان وغيرهم إلى مؤسسة الخلافة كواجب شرعي. فابن خلدون[30] يذكر في مقدمته أنها "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ... فهي في الحقيقة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا". وعلى العموم لا يمكن فهم التاريخ الإسلامي دون الدولة وعلاقتها بالرعية، لقد ظلت هذه المؤسسة السياسية والاقتصادية تلعب دور الموجه. والقول بوجود مجتمع دون دولة يتناقض تماما مع طروحات التاريخ الإسلامي، وماذا لو قمنا بمعالجة التاريخ الإسلامي على محك هذا المنطق المغلوط (انعدام الدولة) ؟ إن ذلك سيسفر دون شك عن تحرك أقلام من يريدون إذكاء النعرات القبلية والطائفية والدفع بها إلى الاحتراب، مما يساهم في تصدع الوحدة والدخول في حرب أهلية لا تحمد عقباها ولا تدرك رواجعها. ومثل هذا التحليل الطائفي يشكل تناقضا صارخا مع الروح الإسلامية، ومحاولة لتلغيم حقل التاريخ الإسلامي.

كما أن إلغاء الدولة يستتبعه إلغاء الحدود والجمارك، وهو ما ينادي به نظام العولمة . والتسليم بهذه الفكرة يعني نجاح خطط الاختراق وإمكانية تسرب كتب أو أشرطة قد تشوش على التاريخ الإسلامي في غياب ضبط ومراقبة علميين.

ومن الآثار السلبية التي تخلفها العولمة على صعيد كتابة التاريخ الإسلامي تعميق الخلاف بين الاتجاه التقليدي والتحديثي في الكتابة التاريخية. فرواد اتجاه التحديث يستفيدون من التكنولوجيا التي توفرها العولمة من حيث امتلاك تقنيات البحث خاصة الوسائل السمعية والبصرية، المرئية واللامرئية بفضل تعاملهم باللغة الانجليزية، مما يؤدي إلى توسيع الهوة بينهم وبين المؤرخين التقليديين الذين تزيد انعزاليتهم ويرتمون في ثقافة الجمود، ويتمخض عن ذلك ازدياد العداء بين الجانبين قد يكون له تأثير سلبي على تكاثف الجهد المفروض أن يكون بين الاتجاهين، والحوار

الواجب إقامته بينهما من أجل كتابة التاريخ الإسلامي كتابة سليمة تثريها الآراء المتنوعة.

ودون تغافل مسألة اللغة الانجليزية، لا يخفى أن العولمة تسعى إلى جعلها اللغة العالمية المهيمنة، لتضع العربية وغيرها في الهامش، مما يسفر عن تفتت الرابطة الثقافية التي توحد مستويات كتابة التاريخ الإسلامي وتعطيل فاعلية لغة القرآن.

وبالرجوع إلى إحدى الأسس التي تقوم عليها ثقافة العولمة وهي ارتكازها على الصورة لا الثقافة المكتوبة ، يمكن أن نتنبأ بأن تاريخنا الإسلامي سيتحول إلى مجموعة من الصور التي لا تعبّر عما يحويه التراث التاريخي المكتوب من قيمة علمية وفنية. وبما أن الصورة تكتسي سلطة رمزية على صعيد الإدراك الثقافي العام، فإن النظام السمعي– البصري يصبح المصدر الأقوى لإنتاج القيم وتشكيل الوعي والوجدان، ويتم الابتعاد عن الثقافة المكتوبة، مما يؤدي إلى تراجع معدلات القراءة في كتب التاريخ الإسلامي، وعدم الإحاطة بمضمونه الغني بالتجارب والانجازات، وهو ما يعكس النفق المظلم الذي تسير نحوه دراسة هذا التاريخ. هذا لا يعني أننا نقف موقفا مضادا لثقافة الصورة، لكننا نرى أنها يجب أن تسير موازية مع التراث المكتوب .

يبقى أخيرا الإشارة إلى مسألة هامة وهي أن ثقافة العولمة التي تقوم على تفوق في التقانة تحاول أن تسخر هذا التفوق لإبراز ذاتها وإقصاء ثقافة الآخر بما يعني ذلك إقصاء تاريخه وهويته فتصبح التكنولوجيا أداة قهر ومحاولة من الأمة المصنعة لطمس تاريخ الأمم غير المصنعة بما ينطوي عليه التقدم التكنولوجي من زيادة درجة النمطية Standarisation في عملية الإنتاج علما بأن النمطية نقيض التميز[31]. ويستشف من هذا الكلام أن نظام العولمة بما يملكه من طاقة تكنولوجية، يسعى إلى إقحام التاريخ الإسلامي في دائرة النمطية، ضاربا بعرض الحائط خصائص الهوية

التاريخية الإسلامية. وتعد هذه العملية عدوانا على التاريخ الإسلامي، لا يمكن إلا أن ينتج تاريخا مشوها يخضع للنمطية الأمريكية.

وتلعب وسائل الإعلام التي هي الابنة الشرعية لهذا التطور الثقافي دورا خطيرا في تشويه بعض المعتقدات الإسلامية كما تفعل أحيانا بعض المواقع الصهيونية في شبكة الأنترنت، مما يؤثر سلبا على التاريخ الإسلامي .

هذه بعض الجوانب التي يخيل إلينا أنها ستكون ضحية العولمة في أفق الألفية الثالثة، بل إن بعضها بدأ عمله منذ الآن، فما هي الوسائل التي نراها كفيلة بالتصدي للعولمة حتى يبقى تاريخنا الإسلامي بمنأى عن أخطارها، وبعيدا عن الابتذالية والتحريفية؟

رابعا : مقترحات للمواجهة والتفاعل:

تتباين مواقف المفكرين من العولمة عموما بأبعادها الحضارية ما بين رافض لا يعي أنه يقف بموقفه هذا ضد مسيرة البشرية، وقابل دون تحفظ لأنها في نظره قدر لا مفر منه، دون أن يتنبه إلى سلبياتها الخطيرة كما تبين من خلال تطبيق مقولاتها على التاريخ الإسلامي. ونحن من جهتنا نرى أن العولمة حتمية تاريخية ، لكن ذلك لا يعني التسليم بحتمية القيم التي تتأسس عليها .

من ناحية أخرى فان بناء خطة لمواجهة العولمة من أجل الحفاظ على "صحة" تاريخنا الإسلامي لا ينبغي أن تؤول على أنها دعوة رجعية تسعى إلى التنكر للمثاقفة وحوار الحضارات، بل هي إجراء دفاعي وممانعة لا مفر منها ضد عدوان واضح على تاريخنا، واستفزاز تشير كل التوقعات إلى احتمال تزايد خطورته، لذلك وجب البحث عن نقطة توازن للتصدي لهذا التيار الجارف والقضاء على خلاياه السرطانية. فما العمل في ظل هذا الواقع ؟

قد تكون أولى المقترحات التي يفترض أن تصنف ضمن الأولويات هي تحصين التاريخ الإسلامي أمام العولمة تجنبا لسلبياتها. وهذا أمر صحيح، لكن يرد عليه بأن نظام العولمة نظام لا يقاوم إلاّ بنظام يكون ندا له. ويخيل إلينا أن الأمر الصواب يكمن في تعرف المؤرخين العرب على مزايا العولمة فيأخذوا منها، وعلى عيوبها فيتجنبوها، وذلك من خلال إظهار عوراتها وقصورها، ومن ثم يمكن تحويل العولمة لصالحنا عن طريق إظهار عيوبها ودراستها وإبراز تناقضاتها، مع الأخذ بما تتيحه من إمكانيات علمية وخاصة الثورة التقنية التي أفرزت الحاسوب، هذا الكائن الذي غيّر المعطيات وقلّص بعدي الزمان والمكان وأحدث ثورة معلوماتية لا يمكن للمؤرخ المسلم أن يدير إليها الظهر، خاصة أن مادة المؤرخ هي "المعلومات " في المقام الأول. وفي هذا الصدد نقترح (دون أن نزعم أن اقتراحاتنا تشكل وصفة جاهزة) ما يلي:

* إنشاء موقع إسلامي في الأنترنت حول التاريخ الإسلامي يكون مبنيا على الحقائق التاريخية المنسجمة مع الروح الإسلامية، ومؤيدة بالأدلة والأرقام و الحجج المنطقية ويتضمن هذا الموقع :

– موقع إلكتروني لكل المشتغلين في التاريخ الإسلامي تسهيلا لإقامة الاتصال و الحوار فيما بينهم عبر شبكة الأنترنت العالمية، وفتح حوار مع أساتذة التاريخ في الجامعات والمراكز الدراسية الغربية.

– وضع إمكانيات خزانات ومكتبات الجامعات العربية والإسلامية بكتبها ومخطوطاتها رهن إشارة الباحثين في التاريخ الإسلامي عبر شبكة الأنترنت.

–إنشاء بنك للمعلومات في مادة التاريخ الإسلامي حول الأعلام والأماكن والقبائل والطوائف والآثار التاريخية العربية–الإسلامية وتصنيف أقراص ليزر حول أهم المنجزات الحضارية للعالم الإسلامي .

– تسخير الحاسوب لوضع فهرست لكل ما كتب عن التاريخ الإسلامي وإبراز المؤلفات الجديدة والأطروحات الجامعية التي تمت مناقشتها في هذا التخصص.

– استغلال الحاسوب لإقامة ندوات حوارية بين المتخصصين عبر كاميرا فيديو جهاز الكمبيوتر تهم إشكاليات التاريخ الإسلامي، وتكون منبرا لإبراز وجهة النظر الإسلامية ومقارعة حجج المفترين على التاريخ الإسلامي.

– إدخال الدوريات المهتمة بالتاريخ الإسلامي في شبكة الحاسوب كذلك.

–تجاوز التشتت الذي يوجد في أوساط المؤرخين العرب والمسلمين، لأنه لولا هذا التشتت لما كان ثمة تخوف من أن تمارس العولمة تأثيرا سلبيا على تاريخنا. وفي هذا الصدد ينبغي تأسيس فرق بحث في التاريخ الإسلامي خاصة أن العالم مقبل على قرن لا موقع فيه إلا للتكتلات الاقتصادية والسياسية والثقافية والمؤسساتية، على أن تتكلف كل فرقة بفتح ورش من الأوراش داخل هذا المعمل الكبير الذي هو التاريخ الإسلامي، ثم القيام بالتنسيق وعرض النتائج عبر الموقع الإسلامي في شبكة الأنترنت.

– انخراط العالم الإسلامي في عالم التقانة والعقلانية كفاعلين مساهمين انخراطا يكون واعيا ومتجدرا، واستغلال التكنولوجيا ومنها الأقمار الصناعية في اكتساح مختلف الحقول المعرفية، ومنها التاريخ الإسلامي الذي يهمنا في هذه الدراسة.

– خلق تواصل بين الجامعات العربية–الإسلامية بكل الوسائل بما في ذلك شبكة الأنترنت لبدء حوار جاد لإصلاح مقررات هذه الجامعات بما يتلاءم مع التحولات الدولية الراهنة، ونقصد في هذا المقام مقررات مادة التاريخ الإسلامي بما يتيح فهمه فهما جيدا وإعداد الطالب إعدادا علميا على أساس مناهج سليمة يراعى فيها إدخال الوسائل التكنولوجية الحديثة تمهيدا لإعداد مؤرخ ذي تكوين ثقافي متعدد التخصصات لمواجهة ما يدور في ساحة العولمة.

– تأسيس قناة فضائية إسلامية تهتم بحاضر العالم الإسلامي ومستقبله وماضيه يكون ضمن برامجها حلقات بحث ومحاضرات وندوات وأفلام عن تاريخ الإسلام، وتتصدى في الوقت ذاته لتصحيح ما تبثه وسائل الإعلام الغربية من مغالطات حول تاريخ العرب والإسلام.

– تأسيس مركز عام لدراسة التاريخ الإسلامي يكون نواة تحيط بها دوائر مراكز أخرى منبثة في العالم الإسلامي.

–وبالمثل يمكن الاستفادة من مزايا العالمية لمواجهة أخطار العولمة، ونعني بذلك دراسة تاريخ الإسلام برؤى ومناهج تجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين ما هو غني متوفر في تراثنا الإسلامي، وبينما هو موجود في الغرب، أي أننا لا نرى أي ضرر في تحديث تاريخنا دون التفريط بذرة من أصالته. ومسألة التحديث لا تعني انبهارا بالمدارس الغربية أو تأثرا بسلطة الغرب المعرفية بقدر ما تعبّر عن قناعتنا بأن الحداثة يمكن أن تنطلق من الداخل، أي من التراث التاريخي نفسه دون أن تتنصّل من إمكانية الاستفادة من المناهج الإنسانية سواء كانت غربية أو شرقية، وهذا يعني أنه ليس ثمة أي حرج في التعامل مع مبدأ العالمية القائم على قاعدة الأخذ والعطاء والإصغاء للآخر دون نفي الذات، والاحترام المتبادل بين الحضارات نتيجة التفاعل بين الخطاب التاريخي ومشاكل المجتمع الإنساني، لذلك ينبغي من أجل التصدي للعولمة أن لا نظل نتخبط ونعارك مشكل المنهج لدراسة التاريخ الإسلامي دون جدوى[32]، فإلى جانب المنهج الإسلامي المنبثق من الرؤية القرآنية، ينبغي الاستفادة من المناهج العالمية الأخرى كالمنهج الكمي الإحصائي والمنهج المقارن ، ومناهج مدرسة الحوليات Ecole des annales والتاريخ الاقتصادي الجديد The New Economic History ونظريات فوكو وغيرها من المناهج التي لا تفرض نفسها ولكنها تقدم ذاتها كأدوات للتحليل دون أن تتعارض مع التاريخ الإسلامي[33].

خلاصة القول أن العولمة كظاهرة ثقافية تحاول بما أوتيت به من قوة تقانية وإعلامية اكتساح التاريخ الإسلامي وتنميطه حسب توجهاتها، مما يعني إمكانية اختراقه تمهيدا لإقحامه ضمن ثقافة تجارية تتحكم فيها الشركات الكبرى إذا لم نقم بتخليصه من أوحالها، والتصدي لها عن طريق الاقتصار على الأخذ بإيجابياتها كما وردت في مقترحات هذه الورقة، ثم مواجهة التأثيرات السلبية المحتملة، مع الاستفادة من ظاهرة العالمية المرتكزة على التعامل بالندية مع الثقافات الأخرى ما دام هذا الموقف يمثل مرجعية إسلامية ومسلكا حضاريا مبنيا على أساس التكامل وحوار الحضارات .

الهوامـش:

1- سليمان نجم خلف : العولمة والهوية الثقافية : تصور نظري لدراسة نموذج مجتمع الخليج والجزيرة العربية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، عدد 61 ، سنة 16 ، شتاء 1998 ، ص 59 .

2 - أنظر على سبيل المثال: محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية، بيروت 1982 (ط5)، مؤسسة الرسالة ص171، حيث انتقد مصطلح العالمية وجعله مرادفا للعولمة وإن لم يذكرها بهذا الاسم نظرا لعدم وجودها إبان تاريخ طبعه لكتابه. لكن يلاحظ أنه تناقض مع انتقاده لمصطلح العالمية حين عاد ليؤكد على عالمية الإسلام بالمفهوم الذي تصوره. أنظر ص 185 .

3- محمد عابد الجابري : العولمة والهوية الثقافية، مجلة فكر ونقد، العدد 6، فبراير 1998، ص: 8

4 - الوصيف علي حزة : العولمة : رؤية إسلامية. مجلة التوحيد، عدد 4، ربيع الآخر 1419 هـ ، ص62 .

5- Roberston : Global culture : Nationalism K Globalism and modernity : Atheory culture and Society Special issue , London 1990, pp 15 – 30 .

6 - عبد الإله بلقزيز : العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة، مجلة المستقبل العربي، عدد ص 92 .

7- عبد الإله بلقزيز : م.س. ص 98 .

8- سورة الأنبياء، آية 107 .

9- سورة سبأ، آية 28 .

10- كقوله تعالى : "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا" سورة الأعراف، آية 158 .

11- سورة الحجرات، آية 13 .

12- نشير هنا إلى موقف الحزب الاشتراكي الفرنسي الرافض للهيمنة الثقافية الأمريكية تحت غطاء العولمة .

13- سليمان نجم خلف: م.س. ص 60 .

14- عبد الإله بلقزيز: م.س. ص 91 .

15- العولمة والهوية الثقافية ... ص 9-10 .

16- نفسه ، ص 9 .

17- سنعتمد في تحديد منظورات العولمة على ما كتبه المفكر المغربي محمد عابد الجابري في مقاله السابق الذكر.

18- عبد الله عبد الدائم : العالم ومستقبل الثقافة العربية، مجلة المستقبل العربي، عدد 222، غشت 1997، ص 29. في خطاب له إلى الشعب الأمريكي بتاريخ 23 يناير 1996 .

19- عبد الإله بلقزيز: م.س. ص 95 .

20- الوصيف علي حزة : م . س ، ص 62 .

21- Harvey : The Condition of modernity, oxford 1989, p229 .

22- محمد محمد حسين : م.س. ص 173 .

23- سورة الحج، آية 67 .

24- سورة المائدة، آية 51 .

25- كثيرة هي الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى توظيف وعيه وعقله لفهم الأشياء وتدبير المحسوسات نذكر منها على سبيل المثال.

26- قوله تعالى : "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون" سورة الذاريات، آية : 20 - 21 .

كل الفصول الواردة في كتابه " المقدمة " هي التجسيد الفعلي للوعي التاريخي .

27- نلمس ذلك بخصوص بعض العبارات التي يستعملها المؤرخون المسلمون مثلا عند احتلال مدينة من المدن الإسلامية قولهم : "أعادها الله للإسلام " أو قولهم عن الكفار ((دمرهم الله)) الخ ...

28- يقول تعالى "ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض" سورة البقرة ، آية 251

29- عن حتمية انتصار المستغل (بالفتح) على المستغل (بالكسر) يقول الله تعالى : "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين" سورة آية

30- المقدمة، بيروت 1979 ، ص 159.

31- جلال أمين : العولمة والهوية والثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث، مجلة المستقبل العربي، عدد 234، غشت 1998، ص 62.

32- محمود إسماعيل : قضايا في التاريخ الإسلامي، بيروت 1976، ص 5.

33- سبق أن فصلنا هذا الموضوع في مؤتمر إعادة كتابة التاريخ الإسلامي المنعقد في بغداد سنة 1987 ببحث تحت عنوان "مقترحات لميلاد مدرسة عربية للتاريخ".